من أوراق الرئيس: **(54)**

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

حلقت شعري ووضعت المونوكل كالجنزالات الألمان

ما الذى يمكن أن يحلم به ريفي صغير؟ ما الذي يمكن أن يتصوره فلاح فقير من ميت أبو الكوم كمثل أعلي لهذه الحياة؟ إن أنور السادات لديه معني اهتدى إليه. وهذا المعنى يشد أزره ويعوضه عن هذه الخسائر الفادحة في حياته.. إن هذا المعني قد تولد من ظلام السجن ، ومن شفافية الجوع ومن مواجهة الخوف ، ومن ثورته علي الظلم. وكان هذا المعني هو "طوق النجاة" الذي أنقذه في بحار الحياة المتلاطمة.. ثم إنه يعمق هذا المعني في نفسه.ففعل ما يفعله الصغار ، ولكن قدرته علي التأمل ووزن الأشياء واستباق الأحداث جعلته يتجه إلي العمل السياسي سرا وعلنا.. ولأسباب في تكوينه النفسي لم يعرف التشفي والانتقام. وفي حياته أمثلة علي ذلك كثيرة ، وهي دروس أخلاقية وموعظة حسنة.. لمن كان يملك العفو فعفا. ومن يملك الانتقام فصفح.. ويقول : "إن الشماتة والمرارة والحقد كلها ضباب يفسد صفاء النفس ويعكر شفافية القلب.. فالإنسان أقوى بالرحمة ، وأعظم بالحب"..

لابد أن يكون شهر رمضان المبارك معنى خاص عندي. هل لأنني يفي ولأن رمضان في الريف له قدسية وجلال ، وله حفاوة لا نجدها في المدينة ؟.. إنني لم أصم رمضان في الريف ؛ فقد انتقلت من الريف إلي المدينة في سن الخامسة. ولكن ظل الريف في أعماقي . وظلت الحفاوة برمضان من أهم الحياة الروحية. فنحن في الريف نرى في الصيام إلي جانب انه فرض ، نرى فيه رجولة مبكرة. فالأطفال الصغار يتباهون بأنهم صائمون. بينما في المدن نجد الأطفال والكبار يبحثون عن الأعذار لكي يفطروا.. هلل لأن رمضان شهر الصيام والصفاء النفسي؟- كما عرفت فيما بعد.. هل لأنني أحب أن أتأمل حياتي وأن أنظر إلي ما كان وما سوف يكون ؟ هل هذه الخصلة في تكويني جعلتني أغرم بشهر رمضان؟.. فهو الشهر الذي يصادف الراحة التامة عندي... هل لأن معدتي متعبة؟.. ككل أبناء الريف الذين أصابتهم الدوسنطاريا ولم يفلح معهم أي علاج ، فهذه المعدة هي التي جعلتني أعيش علي طعام أقرب ما يكون إلي الصيام.. هل لأن رمضان اقترن بصيام آخر إجباري ، عندما دخلت السجن.. ففي السجن عزلة وهدوء وانطواء واقتراب من النفس ، وعكوف عليها.

إنني لم أجد نفسي ولم اعرف أعماقها إلا عندما ذهبت إلي السجن وإلا في شهر رمضان. ففي داخل السجن قرأت كثيرا ، وناقشت نفسي كثيرا، وحاسبتها وعاتبتها.

ولكن لم ادم علي شئ فعلته. ولو عادت بي الحياة مرة أخرى لاخترت كل الذي فعلته ، لأنني في النهاية سوف أصل إلي ما وصلت. فكل شئ بقدر وحساب.. وكل شئ بإرادة الله وتدبيره. والحمد لله علي كل شئ.. إنني في بعض الأحيان انظر إلي الناس واضحك. أو أنظر إليهم وأهز رأسي وأقول : لا شئ من الذي يهم الناس يهمني.. لا هذا الطعام ولا هذه الملابس ولا هذه البيوت ولا هذه السيارات. لا شئ من ذلك. فالناس مشغولون بأشياء تافهة. غنهم لم يهتدوا إلي الذي اهتديت إليه. إنني اهتديت إلي حقيقتي.. ففي ظلمات السجن. وفي الوحدة الباردة. وفي الصفاء النفسي.. وجدت ذاتي. وعرفت أن ذاتي لها قيمة. وأن الذي يشعر بأن له قيمة ، هو الإنسان الذي لا يري للدنيا كلها أيه قيمة. وأنا رجل ذو قيم. وأدعو إلى القيم. إلا المبادئ إلا الصدق. وإلا الإصالة. وإلا الحب وإلا الخير..

وكنت أقول لنفسى : لقد انشغل الناس عن اكتشاف حقيقة ذواتهم . إنها غلطتهم. لا أعرف متى بالضبط اهتديت إلى هذه الحقيقة ولكنى اهتديت..

هل لأن الناس عادة – أكثر الناس – لا يفكرون على هذا النحو فى شهر رمضان ، فأحست أننى امتاز عنهم بشئ.. هل لأن هذا التفسير مختلف عن المألوف ، أو هل لأننى أشعر بأننى مختلف عن الآخرين؟

اعتقد أن أنه التفسير ان معا : فأنا مختلف عن الآخرين فى فهم رمضان ، وفى أدراك حقيقة نفسى، وهذا هو الذى اعبر عنه بأنه شعور بالامتياز.. (وسوف أعود إلى هذا المعنى كلما وجدت شيئا أو حادثا يقربنى إليه ، لعلى أكون أوضح أمام نفسى وأمام الآخرين).

ولن أنسى ما دمت حيا ما حدث لى فى شهر رمضان وفى ليلة القدر من سنة 1942.. فأنا ضابط.. ومعزول. ومطلوب منى الا ابرح المكان الذى استبقونى فيه.. وفجأة جاء من يقول لى : باسم صاحب الجلالة الملك نستغنى عن خدمات وأنت منذ هذه اللحظة حر تفعل ما تشاء !

ولأول مرة فى حياتي أشعر بغصة من كلمة "الحرية" هذه.. هذه الكلمة الساحرة التى تحرك التاريخ من أوله لآخره. فليس التاريخ إلا جهادا مستمرا من أجل المزيد من الحرية.. أو مزيد من التحرر من الخوف والفقر والمرض والظلم والجهل.. هذه الكلمة الفاتنة التى نذرنا حياتنا من أجلها ، قد سمعتها قبيحة بشعة.. انه يقول لى : أنت حر !

ولمك أعرف ما الذي يمكن أن أفعله بحريتى هذه بعد أن جردونى من ملابسى العسكرية. وأصبحت بلا عمل.. ما هى حدود حريتى.. لابد أن تكون هذه الحرية فى أن أمشى فى الشارع أو اجلس على الأرض.. أو أن أرمى نفسي من هذا المكان الذي صار فظيعا فى عيني وفي أذني وفى خيالى.. هنا استشعرت تلك الأهمية الخاصة التى تنقذنى فى لحظات الضياع

فأقول لنفسى : هذا طبيعى. وأنا أتوقع ذلك فى أيه لحظة . ولكن رغم هذا كله فسوف أكون شيئا مختلفا. شيئا أكثر امتيازا عن الناس..

إذن مطلوب منى ان اخرج بكامل حريتى ، لأضيع فى الشوارع بكامل حريتى.. لا مال ولا عمل.. وإنما مسئولية ثقيلة جدا. فأنا صاحب اسرة. ولى إخوة كثيرون. ولى أب فقير. ومطلوب منى أن أنفق عليهم من هذه "الحرية" التى منحنى الملك أياها ! وكان لك بعد الأفطار بساعة .. وفجأة ظهر أمامى محمد ابراهيم إمام. رجل البوليس السياسى بملابسة المدنية. وقلت له : ماذا يا امام ؟ فتقدم ناحيتي وفى غاية الأدب والرقة ، وهو رجل مهذب عادة لطيفة عندما يتكلم ، فراح يفرك يديه معا ويقول : تتفضل حضرتك.

فقلت : إلى أين ؟

قال : بعض الاجراءات.

وسألته : أين ؟

قال : فى السجن..

وأحسسن أن حريتى التي أعطيتها قد تبددت. كانت وهما. وهذا الوهم تبدد. ولم أستمع بها الا لحظة واحدة تم استردها الملك منى، أو استردها النظام أو الانجليز. وبسرعة قيدونى وأودعونى السجن !

ولم يعرف الذين حسبونى أنه منذ تلك اللحظة قد تغير مجرى حياتى. ففى تلك الليلة ، ليلة القدر ، انفتحت طاقة القدر دون أن أدرى ، واختار لى الله شيئا آخر لا يخطر لهم ولا يخطر لى على بال..

ومرة أخرى يواجهنى محمد ابراهيم إمام ، هذا الرجل المهذب ، الذى يؤدى عملا كريها.. فقد كنت هربت وتخفيت فى ملابسى مدنية. واشتغلت بالأعمال الحرة. وعملت مع زميل فى التجارة. وكان لنا مكتب فى شارع قصر النيل. وفجأة ظهر أمامى محمد ابراهيم إمام . وهو رجل مكلف بإلقاء القبض على. ولم أكن أخاف من لن أنسى ما دمت حيا ماذا حدث لى فى شهر رمضان وفى ليلة القدر من سنة 1942 كان مطلوبا منى ألا أبرح المكان الذى استبقونى فيه. وفجأة جاء من يقول لى : باسم صاحب الجلالة الملك نستغنى عن خدماتك !

الاعتقال. فقد اعتقلت فى ظل الاحكام العرفية ولا خوف إذا هربت ولا ضرر إذا عدت. ووجدنى محمد ابراهيم إمام ارتدى جلبابا فوق قفطان . لى لجنة صغيرة. وسألته : إلى السجن ؟ فقال : لا.. ولكن لا داعى لأن تعمل فى هذا المكتب. اذهب بعيدا عن هذا المكان..

ولم أنس لهذا الرجل أدبه ورقته فى المعاملة. ولم يكن مطالبا أن يفعل ذلك. ولكنه عموما مؤدب. هل لأننى ضابط وهو أيضا. هل لأنه رجل مهذب عموما ؟ هل لأنه يعطف على الشباب الوطني، وإن كان لا يستطيع أن يساعدهم ؟..

كل ما أعرفه أن الرجل كان لطيفا. ولم نعرف عنه غلطة أو سفالة فى وقت من الأوقات. ولم أنس له هذه المعاملة الكريمة. وحملتها له..

حتى كانت الثورة. وفى يوم 24 يوليو كان محمد ابراهيم إمام من الضابط المطلوب القاء القبض عليهم. وطلبت أن أتولى ذلك بنفسى. وكان من المفروض أن أعتقل محمد ابراهيم إمام واثنين من ضباط البوليس السياسى ومن نجوم المجتمع والحياة البوليسية والسياسية فى مصر هما : توفيق السعيد والجزار.. وعرفت أن محمد ابراهيم إمام يسكن فى الزمالك. فذهب إليه ومعى قوة من الشرطة العسكرية. ووقفنا أمام شقته. وفتح لنا الباب. وكان يتوقع ذلك. وهذا طبيعى. وكانت حالته النفسية سيئة جدا. لقد كان منهارا. ولم يدر الرجل ما الذى يقول ولا ما الذى يفعل ، وحاولت جاهدا أن اهدئ روعة. وتبسط معه. ولكن لم أفلح فى تهدئته. وسألته : إن كانت زوجته وأولاده فى البيت؟ فأجاب : فى الإسكندرية. إذن لفد اعد محمد ابراهيم إمام نفسه لكل الاحتمالات. وقلت له : إن رجال الشرطة العسكرية سوف يقومون بتفتيش البيت.. ولا داعى لأن تقلق. فلن نعاملك ، كما كانوا يعاملوننا. لا تقلق. وكان الجو حار جدا. وسألته: أليست عندك ثلاجة ؟ قال عندى..

قلت : أريد كوبا من الماء البارد.. ودخل الرجل فى غرفة وخرج من غرفة. وهو لا يكف عن الكلام ، ولا أدرى ولا هو يدرى ، ما الذى يقول. ولكمهفى حالة اضطراب شديد.. بل فى حالة ارتباك أو يمكن أن أقول إنه فى حالة "تلبيك" شديد.. لا يعرف أين الباب ولا الشباك ولا الغرفة ولا الثلاجة. ولم يجد رجال الشرطة العسكرية شيئا. وطلبت إليه أن ينزل معى. وأكدت له أنه لا خوف عليه. وذهبت به إلى الكلية الحربية. وقبل أن أتركه فى الكلية الحربية سألته إن كان يريد شيئا. قال : أريد مصحفا.. وكذلك طلب توفيق الحكيم والجزار..

وعندما زرت محمد ابراهيم إمام بعد ذلك. وجدته جالسا على سريرة يقرأ المصحف. واكدت له أنه لا خوف عليه. وأن أحدا لن ينتقم منه أو يتشفى فيه. ويبقى الرجل بضعة أيام ثم أفرجنا عنه..

وعرفت فيما بعد مصدر خوفه وفزعه. فقد ادرك انه فى ظل الثورات عموما، يلقى رجال البوليس أسوأ نهاية. وأن موته مؤكدا لا محالة. واننى عندما طلبت إليه أن ينزل معى فى سيارتى تصور أنى سوف أقتله وألقى به فى الصحراء. ولن يعرف أحد عن هذا المصير شيئا بعد ذلك ! وأعزو هذا السلوك أيضا إلى أن لدى شعورا غامرا بالامتياز.. هذا الشعور يجعلنى أحس أننى أكبر وأننى أهم. وأنى ممتاز وأنى غير الآخرين.

ربما حرصي على التفكير وعلى التأمل. فاختلفت بذلك عن غيري من الشباب فى مثل سنى، هو الذي جعلنى أشعر بأنني مختلف، وأنه من الضرورى أن أؤكد هذا المعنى بصورة مفيدة.. ثم أننى رأيت أنه لا يكفى أن يكون الإنسان شاعرا بامتيازه ، وإنما يجب أن يقترن هذا

الشعور بالعمل أو بما يؤكده. فاتجهت إلى القراءة. وقرأت كل ما وقعت عليه عيني. ولكن لم أجد نفسى فى كل الذي قرأت فى سنوات شبابى الأولى...

وعندما تخرجت فى الكلية الحربية اتجهت إلى العمل السياسى. وفى يوم من الأيام قرأت أن "دار المعارف" تطلب من القراء أن يطلبوا منها قائمة الكتب الجديدة. وطلبتها ووقعت عينى على كتاب لأحمد أمين اسمه "فيض الخاطر" وهو بالفعل فيض من المعلومات والأفكار الشرقية والغربية. والكتاب يفتح الشهية إلى القراءة. وأسلوبه بسيط ومنطقه سليم. وأحمد أمين كعدد من كبار الكتاب المصريين. يرفعون من قيمة الرأى والفكرة.. أى من قيمة العقل الإنسانى والإنسان. بعمله وليس ملابسه أو أهله أو حسبه.. وهذه المعانى صادفت هوى فى نفسى. فهذا رأيى أنا أيضا. وكان من المألوف أن يتخرج الواحد فى المدرسة أو فى الكلية ويجد أن لغته الإنجليزية ضعيفة. أو لا تسعفه عند الكلام أو عند القراءة. فذهبت إلى المعهد البريطانى بالقرب من شارع عماد الدين والتحقت به. لكى أحصل على درجة عليا. وطلبوا منى عددا من الكتب. وادهشنى أنهم طلبوا أيضا كتابا لأحمد أمين أسمه "ضحى الاسلام". وعرفت فيما بعد أن هذا الكتاب ليس الا الجزء الثانى من ثلاثة كتب هى : فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام... واتجهت إلى دراسة اللغة الألمانية أيضا. كانت هناك سلسلة كتب اسمها " سلسلة هوجو لتعليم اللغات". واخترت كتابا عن تعليم اللغة الالمانية باللغة الانجليزية.. هل هو حبى للغات، أو هل هو حبى للعسكرية الألمانية والألمان. هو الذى دعانى لان أدرس اللغة الالمانية .. وفى ذلك الوقت كانت قد صدرت الترجمة الفرنسية لكتاب توفيق الحكيم " عصفور من الشرق". وعكفت على الترجمة الفرنسية ومقارنتها بالأصل العربى.. لقد وجدت نفسى مشغولا بالقراءة وبدراسة اللغات وإتقانها أيضا. فى الوقت الذى كان فيه امثالى من الشبان يجدون صعوبة فى إتقان اللغة العربية واستخدامها فى الكتابة أو التعبير..

فأنا أحب الثقافة وأراها ضرورة حياة. وفى نفس الوقت أرى أنها شرط لتأكيد شعوري بالامتياز عن الآخرين.. وفى السجن اكتشفت كتاب "حياة محمد" للدكتور محمد حسين هيكل ، وهو من أنواع أروع الكتب التى قرأتها عن الرسول عليه الصلاة والسلام. . ولا انسى اننى ظللت احتفظ بصور الجنرالات الألمان ، أبطال الحرب العالمية الأولى.. وخصوصا الجنرالات البروسيين. وقد ارتدوا قبعاتهم العسكرية وحلقوا جانبى الوجه ثم وضع كل واحد "المونوكل" على عينيه.. وبعد تخرجى فى الكلية الحربية حلقت شعر رأسى على طريقة الجنرالات البروسيين.. وذهبت إلى محل نظاراتى وكشفت على نظري فوجدته سليما.. وطلبت من الرجل أن يصنع لى المونوكل. واندهش الرجل. وأمام إصرارى أن بزجاج أبيض. وجعل حافة الإطار مشرشرة لكي اضغط عليها بعينى. ووضعت المونوكل على عيني السليمة.. ولكن الذى لا يراه الناس هو اننى مبهور برجال الحرب الألمان .

فالعسكرية الأصلية هى العسكرية الجرمانية البروسية. ولابد أن يكون هذا السبب نفسه هو الذى بهرنى بهلتر.. والذى جعلنى مفتونا بروميل ثعلب الصحراء وجعلنى اتصل به ، وابعث اليه بمعاهدة كتيتها بخط يدى ، وكنت فى الثانية والعشرين من عمرى ! (سوف أعود إلى ذلك فيما بعد) . لقد دخلت السجن ليلة القدر 1942 وحرجت من السجن فى ليلة القدر سنة 1944.. أى أننى أمضيت ليلة القدر ثلاث مرات فى ظلام السجون.. إن اناسا كثيرون ذهبوا إلى قمم الجبال أو إلى صوامع الرهبان بعيدين عن الدنيا كلها.. وهانت عليهم الدنيا كلها. ولم تهن نفوسهم عليهم. وفى هذه الوحدة التامة والصمت الرهيب والظلام المطبق ، وفى حالة الصفاء والشفافية الخالصة اكتشفت حقيقة أخرى : اننى استطيع أن أعود إلى قريتى ميت أبو الكوم. هناك فى أرضي وتحت أشجارها وبين أهلى وأقاربي وبين الفلاحين. هناك لن ينكرني أحد. ولن يخذلنى أحد. ولن أجوع ولن أعطش.. هناك أستطيع أن أذهب وأن آوى إلى أحضان الريف كله. فالريف كله أحضان حانية لا يسألك أحد تفسيرا لما أصابك.ز وإنما يرون أن الحنان هواء مبذول لكل إنسان يطلبة أ و لا يطلبة ..تماما كظلال الأشجار دائما هناك.. سواء جلس فيها أحد ، أو لم يجلس فيها أحد.. أن الظلال والماء والطعام والرحمة والحب والحنان كلها فى متناول كل الناس..

وفى السجن رحت أتخيل البيت من الطين الذى سوف أعيش فيه. ورحت أضع طوب هذا البيت واحدة واحدة.. وأغرس حوله الأشجار.. ثن انتقيت لنفسى شجرة. وجلست تحتها. وجعلت انظر إلى بعيد.. وأمامى رأيت شريط حياتى ، صاعدا هابطا ، عسكريا مدنيا ، متهما قاضيا ، قادرا عاجزا ، سليما مريضا..

ورأيت كل شئ يظهر ويختفى ، ويعلو ويهبط ، يقرب فيكبر ، ويبعد فيصغر.. إلا شيئا واحدا فى داخلى : هو أننى مختلف عن الآخرين. وان الله قد ادخرنى لشئ أكبر لا اعرفه. ولا أدرى ما هو. ولكن شعورى هذا يسعدنى والسلام.. عندما أعود بذاكرتى إلى الوراء ، وأنا أفعل ذلك كثيرا، أجد أننى لم أهتد إلى معنى هذه الأحداث إلا فيما بعد..ولا أدعى أننى كنت اقرأ مسار الأحداث فأعرف نتائجها بوضوح ، وإنما تعلمت من سرعة الأحداث وتشابكها أن أثبت أن أكون هادئا. أن أصبر.. انني تعلمت ذلك فى حياتى العسكرية ، فلابد أن تكون هناك قاعدة ثابتة تحت أقدامنا ، لكى نكون قادرين على إصابة الأهداف.. وكذلك فكريا ومعنويا. والمثل يقول : لا يغلب الأيام إلا من صبر. ومعناه : إلا الذى انتظر فى ثبات.. ومثل آخر يقول ك من صبر ظفر.. ولم أفلح فى أن أكون صبورا إلا بعد مجاهدات طويلة. فليس فى يوم وليلة يبنى الإنسان شخصيته.. ويختار طريقة ويحدد أهدافه. وإنما هى المعاناة العنيفة التى تكشف جوهر الإنسان وفى ضوء الجراح ونزيفها تظهر للإنسان صلابته وقدرته على تحمل الالم ، ومواصلة السير نحو آلام اخرى ، من أجل غاية أكبر.. هنا أعود إلى ذاكرتى التى

احمد الله عليها. فقد حفظنى بها ، وحفظها لى ، فاتذكر مقالا قرأته لأحمد أمين أيضا وتمنيت أن أكتب له معلقا على ذلك.. وشغلتنى الدنيا عن ذلك.. قرأت له مقالا يقارن فيه بين صاحب الرأى وصاحب العقيدة ، أو بين صاحب العلم وبين صاحب الإيمان.. وأن هناك فرقا كبيرا أن يكون لك رأى وأن تكون لك عقيدة فالذى له رأى هو الذى عنده معلومات ، والذى عنده عقيدة هو الذى عنده شئ فى دمه. وصاحب الرأى قد يكون مفكرا ، وكل ما يحتاج إليه هو الأدلة على صحة الرأى ، أو على بطلانه.. ولكن صاحب الإيمان راسخ وقاطع. وصاحب الرأى مستعد لأن ينزل عن رأيه هذا إذا ثبت خطؤه ، وهو منذ البداية يعلن أن رأية يحتمل الصواب والخطأ. أما صاحب العقيدة فهو الإنسان المتحمس الذى لا يهدأ إلا إذا تحققت عقيدته. وأهم ما قاله أحمد أمين. بعج مناقشة ومفاضلة بين الرأى والإيمان. أو بين ما أسميه أنا بعد ذلك بالعلم والإيمان. هو أن الشرق لا ينقصة الرأى ، فما أكثر الآراء. وإنما ينقصة الإيمان ، ولو ظهر فى الشرق أناس يؤمنون إيمانا قويا راسخا بشئ. لتغير وجه الحياة فى الشرق.

وتمنيت أن أقول لأحمد أمين ، إن العلم ضرورى للإيمان. وإن الإيمان شرط للعلم. فالعلم شر بغير علم. والعلم عقل ينبر. والإيمان قلب يهدى.. وقد نزعت بهذين الشرطين ليكون لى ولغيرى دور فى خير مصر والأمة العربية..